قصة قصيرة

رغبة الإدراك

بقلم رفيقة الطبيعة

« يا الهي .. خذ حياتي .. لاني لست افضل من آبائي .. »

المنفى :

الرياح الباردة تعصف بالانتظار : بالرؤوس الجوابة للصقيع .. بالأعين المغلقة على فزع الاشياء .. بالصدور المحترقة برغباتها المفتقرة الى منير خارجي .. حصاد سنوات الصمت الوحشي : القابلية السلبية .. وكل هذه الفوضى الصامتة تطوح بالنفس المفردة الى محيطات الضجر فالقسوة .. لكن القسوة نشوة الانسان المتواطىء مع الحياة .. (تلك المحاكمة اللينشية الفوغائية .. الجماعة المتواطئة المهيمنة ضد الفرد المصلوب بمشروعية تطلعاته .. التهمة المعكوسة والحكم الفوغائي والتنفيذ الفوري ..) . المنفى : سقوط لا نهائي خارج دائرة لغز الجاذبية البشرية المدمرة : حياة اللاحنين الى تبرير الموقف اللامنتظر .. كبوة الانسان وارثه المفزع : (الخيانة) !

الذي ما كان ممكنا تأمله في فترة الصخب ـ قبل عشر سنوات خلال التحرك اللولبي داخل البذلة والرتبة العسكريتين : تذبذب المحيطين بدائرة القيادة .. خور الانفس .. انحطاط الوازع القومي المشترك .. ازاء المخطط كله .. المعوّض المنتظر عن جهل تكالب .. وجوع تفشى . وفقر أذلّ الجباه الاصيلة المكابرة . مسح بها نعال سماسرة النفوذ . قناصي اللحظات السلطوية في المزادات .. لم يكن مخططا لثورة مغرية .. تسبقها ابواقها المعلنة . ان هو الا ذاك التطلع المتطور للحياة .. الذي يختمر خارج الزمن المعدود والمكان المحدد .. فمعنى الثورة المشكلة للعالم من جديد انما يكمن خارج العالم قبل لحظة البدء . وفجأة . في خساسة ملساء نادرة : ارتطم شيء بالقعر المظلم . ركن من المخطط في كمين الانسان .. في ضعفه وجشعه : خيانته البشعة . الموقف المضاد عن جبن فحسب .. سوس الازمنة القديم .. او طمأنينة الخالق على المصير المتارجح لمخلوقه في مهب ريحه المتقلبة ضده في اي زمن .. في كل موقع ..

بعض من كل : هذا المنفى .. جزء من ثمن فادح : التطلع الى حرية مسؤولة ينكمش تحت عبئها الاذناب .. انما فزع الخائرين قيادة انفسهم ..

اية فكرة يمكن ان تستأصل عذاب الاستمرار ؟ اية تفاهة متبقية للانقاذ .. لتغيير معنى نهار بطيء يقظته عشر سنوات .. او ليل ارفه عقد زمن لا موت داخله .. حوله .. (فالموت لا يعاش) .. الا ان انتظار النساء عبء مضن .. ان تنتظرك امرأة الم رقيق يطوقك بلا رحمة ، يعصر الاضلع .. يذيب شجاعة الصبر شوقهن المسافر عبر الكواكب اللامعة في تعاقب الضدين .. : الخط المتين الواصل بين عقاب الله وتسامحه على الارض .. امل العودة اذن ؟؟ او السعي الى هوة الحقد المتأججة .. لتكن عودة الروح .. ولينبثق دم هذا الوجه المحكوم بالنفي . عساه يتمرد على ملامحه .. محنته .. سجن عمره .. لتطمس صورته .. اما يكفي ان في الروح قبسا من وهم الخلود ؟!

* * *

العودة :

الرياح الباردة تعصف بالاشجار العارية . بالاوراق الممزقة . بالانسجة الفارغة من دفئها حول الاجسام .. الامطار والوحل ، الاقدام المتقلصة في مخابئها .. غربة مفزعة ما جدّ على ليل هذا البلد .. لعودة الابناء صوت غامر .. رعشة حلم اخضر يلوح انه بمنطق القهر قد ذبل واجتث .. هذا الفناء البطيء علامة حتمية لاستكانة الحياة في ظل الانقاض المتعفنة : غلبة هائلة لظلمة الحقد .. لامتصاص جشع مستنزف بالاضواء الزائفة المعلقة بقمة حثيثة الانهيار .. (الموت لا يعاش) .. بل يعاش اليوم فقد اصبح للموت اكثر من واجهة حضارية .. معنى متعدد .. تخطيط .. وللموت الجماعي بريق غريب زيفه : يسبق الانطفاء ... الاحساس به هنا .. مع كل خطوة يتضاعف . الافتقار الكلي الى الخلق .. الى القوة الكافية لاعادة الحرارة الى اوصال اليوم المهدور . تاريخ الغد المهتريء . هو ما يسجله اليوم .. كذب على الجيل .. شخير النفوس الجائعة الى حد فظيع هو ما تحفل به الدور .. وتنبىء به النوافذ .. فما عاد في هذا البلد طعام يكفي .. يقيم اود روح عظيمة واحدة ..

اي (سيتيا) الحبيبة .. زادك عودتي . خطواتي

الحذرة المورقة في الشارع المقفر . فلتتزن دقات هـذا القلب الوثاب .. وليفسح ظلام الليلة المبللة طريقا قديما الى البيت ذي الحديقة الاخيرة في الترتيب .. مهد حقيقة خنقوها دون ادراك لاصل المأساة .. في نافذتها تلك صفد الزمن تطلعاتي واحلامها ـ في المطر وسط زحمة الافئدة العمياء : كان الرحيل .. وها هي العودة : المطر والوحدة . زحمة الحزن وحدها باقية.. قوية، ان موتها في نورها : شعلة السعادة .. لكم هي قصيرة . خادعة خلف نافذتها المصباح .. في المرآة وجهها ..ذكرى رجل كنته لها في الركن الاثير المتوهج والاخضر الابكم طيرها يسكن الزاوية المقابلة .. الصورة المشدودة الى الجدار المغطى بهواياتها : البذلة والرتبة الخطيرتان : اطار الماضي أتراها غطته بقماش اسود شفاف ..؟

المطر.. المطر يا ابن الرياح.. دمعها انت.. فلتطهر هذا الجلد الموسوم ببلادة المنفى . وجراح الوجه الغريب في وطنه .. كيف تنال من التهاب الجسد العائد بأمل اللقاء انهار الصقيع ؟ احضن يمناها .. هل احضنها ؟ ترتعش .. ينطفىء المصباح .. سينطفىء . فلغتنا أن نضيء وحشة الليالي الموزعة دهرا بين المنفيين ..

وحشة الشارع المقفر تنهزم .. صدى خطوات كتلة متحركة .. نجمتها السلطوية تحرق فراغا صغيرا حولها .. الخطوات الموزونةالقوية الواثقة تصفعني : شوقيوالليل ولهفة السنين .. اعرفها ـ لرجل واحد هذه الخطى المستفزة لحلمي ـ بكسر الحاء ـ .. لا بيت سواه فينهاية الشارع .. بيتها .. حديقتها ؟ فهل هو « الاخر » ؟

★ ★ ★

ـ سيتيا .. ايتها الحبيبة ..!

ـ ت .. تيلس !!

ـ رغم تنكري ؟ ايتها المخلصة ..

ـ ما به وجهك قد تشوه ؟

ـ . فداك .. خلقة تافهة لا تمنع عودتي اليك .. ان جمال روحي كما تعهدين ..

ـ تخيفني حقا . ما الحدث ؟

ـ همسك فحسب . قد نكون مراقبين .. وجهتي منفذ الجهة الخلفية من الدار ..

ـ لكن كيف .. انتظر .. كيف عدت ؟

ـ بعد عقد من الزمن المنسي هناك : لوتخلى العالم كله عن معناه . فسأظل متمسكا بك .. لكم عذبني نداؤك الخفي في عزلة الليالي ..

ـ فررت اذن ؟

ـ افتحي .. قد يولد الواحد منا وحيدا . لكنه يمتلك بعد ذلك من الارادة ما يرفض معه ان يموت كذلك ..

ـ ما كان ينبغي ان تغامر ..

ـ ما كان ينبغي ان اضيع حقيقتي اكثر مما فعلت .. والان دعيني امر من هذا المنفذ . فقد غسلني المطر ..

ـ تخطيك هذه العتبة ليس له من معنى الا الموت ..

ـ الموت ؟! لا تهتمي : هو هدية الاعداء لنا. والاصدقاء على السواء .. لكن . أهو خوف عليّ ام تهديد لي ؟ وهل حقا رأيته يغادر حديقتك الليلة ؟

ـ من ؟

ـ رايت النجمة المنتزعة مني على صدره..(الاخر).

ـ غريمك ! فلم تسألني ؟

ـ يحتل مكاني في الواجهتين ولا سؤال ؟ خيانة مزدوجة : أجهض مشروع تطلعي . ويغتصب اليوم في البيت ركني .. اية نذالة ؟؟

ـ يحميني .. انت تدرك حاجتي الى العيش بعدك..

ـ امن ذكراي تحتمين به ؟ انا الذي اوقد الجذوة في النفوس . وزعزع خرافة الكرسي المنخور ودق ناقوس الحياة القادمة في اسماع النائمين عن حقوقهم ؟ امن ذكرى الاسد تحتمين بذاك الجرو التابع الاجير ؟ من باع روحه للشر ؟

ـ هو فارس اليوم .. فما وضعك هنا ؟

ـ يا لها مرارة الواقع .. فهل اعترف حقا بانني مجبر على الاختفاء خلف جدرانك ؟ لكل زعيم خلية . وأنت وسيلتي لاشعار خليتي بعودتي الى الحياة ثانية ... ثقيل بالفعل هذا العبء على عاتقك بعد الان ..

ـ جدا .. الى حد أرفضه معه منذ الآن .

ـ أترفضين ايصال شرايين الدم الى قلبي يا سيتيا !؟

ـ داري تضيق بالمتآمرين ..

ـ لكن من هم اولئك المتآمرون ؟ نحن الاهل .. الاصل ، وهم النسخة الرديئة للاختلاس ان للوطن مولدا واحدا .. لا يكون الا على ايدي رجاله .

ـ لا لا فائدة .. من الاسلم الا تدعني ارى وجهك البشع بعد الآن .

ـ نصفك يا سيتيا .. زوجك ..

ـ زوجي حوكم في (فلورنسا) ونفي الى (سارزانا) مدى حياته . واصيب بحمى فتوفي وقبل وفاته بيوم كتب لي :(اني احيا بلا امل ان اعود ثانية يا (ا) (سيتيا) ..

ـ فلورنسا ؟ سارزانا ؟ لكنه شيء ما حدث قط .. ما حدث . ربما يحبل به المستقبل الممعن في الغموض .. (سيتيا) . كيف تحجب عنك اللحظة الزائفة حقيقة الغد الكبيرة ؟

ـ اذا كنت تعتقد بعدم وجود نظام عادل في البلد .

فيجب ان تواجه ما يعنيه ذلك . لانـه ـ في هذه الحال ـ لا بد ان تكون أنت نواة النظام (البديل) او المنتظر في الحلم فحسب . وأنا امراة لم تراهن يوما على غير الحقائق . .

ـ كل الحقيقة انا .

ـ لتوافر الحقائق شروط . . هل تفهم ؟

ـ شروط في بيتي ؟ في ظرفي؟!

ـ محكوم هارب او غريب هاجم . اي التهمتيـن يناسبـك ؟

ـ يا الهي . . سيتيا . . لا . انما انت هي : (ليلث). قد جعلت منك الاسطورة نصفا لآدم التعس قبل التقائه بالنصف الحقيقي . . نسلك الشياطين عبر الهواء والماء . . على الارض تجوب العالم . . آفـة البشر . . وساحـرة الابطال الشريرة . . رحمتك يا الهي : والثمن يا سليلـة اللعنـة الابديـة ؟

ـ انقيادك للاخر . .

ـ أنا ؟ متى كان الملائكـة قرابين الشياطين ؟

ـ شراء رضائه يعني كسب راحتي .

ـ راحتك ؟ وحولك كل هذا العالم المشرد في ارضه؟ الجائع بخبزه ؟ يا شجرة الحنق . ياشقاء آدم القديم الذي كتب على جبـاه البشر . . ما في المخطوطـة المقدسة الا الحق (أولئك الذين يرفضون أن يميزوا . ليسـوا الا امواتـا » . فلتتعفن بوتقـة هـذا الوعـي المرهق . . لتمتلك الهياكل المنخورة الاعنة . ولتخفت الاصوات . كل الاصوات وتقبر دونما طمع في آذان تعي . . أي (تيلس) الوحيد : (تطلع الى الامـام في غيـر مبالاة دون ان تفكر في جنـي ثمار اعمالك » (٢) .

* * *

العبـور :

الرياح الباردة تعصف بالانفس الخائرة . . وكمـا تتدهور الحضارات لتخلي العباقرة عنها . تميد بالاوطان ارضيتهـا المنخورة لاغراق الزعماء فـي صمت (القمـة) الذي تمسي فيه انفسهم اكثر تفسخا وضعفا . . ان التقهقر المرتد يمسح كل اثر للزعامة . . بل يدينها . . ذلك السلام النفعي الذي لا يغفره انسان حقيقي لنفسه عند اليقظة . . والمفر ؟ المحدود خارجها انا منبوذ . . داخلها محـذوف . . والمنفى خيانة للروح المتوثبة . . لكـن سخونة الموت الفوري . . . الموت حالة تعاش اذا اصبحت ارادة الموت : (الاختيار اللاعشـوائي) تمامـا كارادة الحياة . . حتى في اسـوأ المواقف لا ننهزم اذ نرفض الوصاية . . ان هي الا عملية داخليـة رقيقة . . بالغة الدقة والقصر . ان نحن ابعدنـا الوعي الذاتي المرهف خلالها : . . العبور بوثبة متزنةونلقي في وجوه الخائرين في سجن أنفسهم والحيـاة المضللة باختيارنا الاخير . وبحزمنا ننفي عنه سلبيته . . لقـد افترضت دائمـا في المتقدميـن امتلاكهم لحرية ارواحهم حتى داخل اسوار الخيانـة المطبقـة فجأة كالصاعقة . . او الزاحفـة كالوباء المتفشي . .

ان التبعيـة العمياء للاخرين : خيانـة . . عيـون زوجتي . . عذري لهـا انذل شكل تتخذه خيانتي لواجبي . . ترددي في العبور . . في التلويح بزهـرة « اللوتس » الخالدة ـ رمز اللانهائية ـ خلال تباعدي عن شخير النيام على جانب واحد طيلة حياتهم ـ غالبا هو خيانة لاجيـال قد تحبط تطلعاتها بسبب نهايتـي التافهة : لو انقدت للآخر ضمانا لراحتي وراحتها . . في كنفهـا . . في بؤرة نظامها المتكالب . . سيتيا . . اي ليليث الشريرة المطلقةالسراح . . عيثي فسادا في المخدع . . في البيت والمدينـة ، الارض والنفوس حرثك العقيم . . القديم . والى الابد لن تستعيدي روحـا حقيقيـة واحدة . .

* * *

استلّ من ثوبه خنجره الصغير اللامع . . صرخـت (سيتيا) فزعا اذ دفع بهـا بعيدا عنه متخطيا سيـاج الحديقـة الى فناء البيـت :

ـ ايها المأفون . . لا مفر لك من تسليم نفسك . .

ـ يا الهي . . خذ حياتي . . لاني لست افضل مـن آبائـي (٣) . .

. . . وامتلأت ارضية بيت (سيتيا) بدماء (تيلس) الغزيرة . . وبقيت روحه (الاسطورة) تسكن ـ على التوالي ـ بيوت كل الشهداء المغتالين الى اليوم . .

هـوامش :

١ ـ للشاعر الايطالي المنفي ج. كافا لكانتي .
٢ ـ العبارة لكريشنا (أحد الالهة الهندوكية القديمة)
٣ ـ ك . باركـر .